من سجن الجسد إلى فضاء الروح

«النظر إلى الحياة كمأساة لايخلو من رومانتيكية طفلية. والأجْدرُ بك أن تنظر إليها فى شجاعة كدراما ذات نهاية سعيدة.. هى الموت.»

محفوظ... السكرية

بعد رحلة رمسيس الثانى من ميدانه الرحب المزدحم فى قلب القاهرة إلى موقعه الجديد/ القديم فى محافظة الجيزة - آثر كاتبنا العبقرى نجيب محفوظ أن يغادر دنيا الناس إلى برزخ الخلود بعد أسبوع واحد من رحلة جده الجليل، فكأنما بدأ الموكب الجنائزى المقدس بأعظم ملوك الحرب والسياسة وانتهى بأفضل قادة الأدب والثقافة. وتلك معجزة مثل سيرة محفوظ.. وعطائه الأدبى.. وشخصيات عالمه القصصى.. وحصوله على نوبل الآداب.. ودكتوراة جامعة القاهرة الفخرية.. وقلادة النيل.. وصنع تمثال له - وهو حىّ.. كما أن نجاته من خنجر الغدر(١٩٩٤).. وموته بكأس الموت بعد حياة استمرت خمسة وتسعين عاماً. أليس فى ذلك كله.. وغيره - معجزة. وإن ظن بعض الناس أن عصور المعجزات قد انتهت.. وانقرضت..!!

وشيع محفوظ فى جنازة شعبية كرنفالية من مسجد الحسين وأخرى رسمية من مسجد آل رشدان، ملفوفاً بعلم مصر التى أحبها.. ومودعاً

من آلاف الشخصيات التى خرجتْ من صفوف شعبه وصفحات كتبه لتودعه.. وتوارى جثمانه فى جنوب الجيزة. هكذا انتقل الراحل العظيم عبر فضاءات مكانية ثلاث، خلدها فى أعماله الأدبية هى: حىَ الحسين ومنطقة العباسية وصحراء الجيزة، حيث «الحب فوق هضبة الهرم»، حتى يستقر هناك إلى أبد الآبدين «حضرة المحترم».. «العائش فى الحقيقة» بين «بداية ونهاية». أليس فى ذلك معجزة أخرى.. ﴿فبأى آلاء ربكما تكذبان﴾؟!

إن خالق الكون - جلت قدرته وعظمت حكمته - يرسل كل حين من الدهر للبشرية من يجدد شبابها، ويصحح مسيرتها، ويثبت قوى رشدها. تلك عبقرية مصر المتجددة - دوماً - بحثاً عن كل ماهو أصيل، وتثبيتاً لكل ماهو نبيل، فيابُوركتْ مصر.. وحماها الله من كل شرّ وبغْى.

كم ذا بمصر من العظماء - ومحفوظ واحد منهم بلا ريب - سوف تظل راياتهم مرفرفة، وأضواؤهم مشَرفة، وآثارهم مثل الشهب متلألئة. فالعباقرة لايموتون .. والعظماء لايغيبون. إن الجسوم الضعيفة قد تبلى، والأعْضاء المنهكة قد تفْنى، لكن تظل الأرواح الطاهرة خالدة منذ ماقبل الأزل.. وبعد كل أجل.

وإذا كان محفوظ قد رحل بالجسد الضعيف.. فسوف يبقى تراثه الأدبى خالداً مثل الشجرة الطيبة، تؤتى ثمارها المتجددة لمن يبحث عن المعرفة وينشد الحكمة، التى هى ضالة الإنسان الطيب، ويجب أن يتلمسها حتى يدرك الطريق إلى الحق والخير والجمال.. وأى سبيل إلى

ذلك مثل تراث محفوظ أمير الرواية العربية..؟!

هـذه الدراسـة النقدية التى نقدمهـا إحياءً لذكـرى رحيل «عميد الرواية» - تؤكد أن تراثه السردى يُعد (علامة) فارقة فى تاريخ أدبنا، وإعلان الميلاد الحقيقى للرواية العربية الحديثة.

فقد أصّل.. وأسـس هذا الكاتب العبقـرى مولد ذلك (النوع الأدبى) الجديد. ومن حسـن الحظ.. (ولم لانقول من المعجزات؟!) أن (المولود) قد جاء بشـكل طبيعى، واضح القسـمات، مشرق العلامات. إن ماحققه محفوظ للأدب العربى يوازى ماحققه ديستويوفسـكى للأدب الروسى، وأونريه دى بلزاك للأدب الفرنسى، وتشارلز ديكنز للأدب الإنجليزى، ووليـم فوكنر لـلأدب الأمريكـى، وجابرييل غارسـيا ماركيز للأدب الكولومبى.

وإذا كان مؤرخو أدبنا يفخرون بإمارة أحمد شوقى «١٨٨٠-١٩٣٢» للشعر، فما أحراهم بأن يعدوا محفوظ «أمير الرواية العربية».

فهو - عن جدارة واستحقاق - إمام «أبناء حارتنا» الحكائين قاطبة. ومأأحسبنى مجافياً للحق والحقيقة حين أقول: «محفوظ».. أمير الرواية العربية»، ذلك مأأؤمن به.. وأدعو مخلصاً إليه.

إن خصوصية محفوظ المتفردة تتبدى فى قدرته الإبداعية الهائلة على أن يعكس هموم واقعه... وأشـواق مجتمعه إلى درجة تبلغ حد الإعجاز والكشف الروحى. إنه مثل «المتنبى» العظيم الذى شكل بمشاعره وشعره آمـال الأمة العربية وأسـرار إعجاز الفصحى، لذلـك ليس من الغريب

أو العجيب أن يفتخر بتراثه قائلاً:

أنا الذى نظر الأعمى إلى أدبى   وأسمعت كلماتى من به صَممُ
أنامُ مْلءَ جفونى عن شواردها   ويسْهرُ الناسُ جرّاها ويختصم

فأعمال محفوظ الخالدات من القصص والروايات تقدم تأريخاً سردياً لحراك المجتمع العربى المعاصر، وتشكيلاً جمالياً لهمومه الفكرية والروحية. إن من البشر أدباء ملهمين - ومحفوظ واحد منهم بلا ريب - تركوا تراثاً يشبه المعابد والأهرامات التى لم تبح بكل أسرارها الخفية بعدُ حتّى اليوم.

وأتمنى أن يأتى يوم يجمع فيه تراث الرجل، ويضم أعماله المعجزة وآثاره الخالدة، لإقامة «أكاديمية» أدبية خاصّة به، تقوم على دراسة نصوصه، والكشف عن عطائه الفنى والروحى متجدد الخصوبة والنماء.

إنّ أديبنا يطرح رؤية أدبية رحبة وعميقة للعالم والإنسان. وسوف يعلم الجمع ممّن استمتع بأعماله الإبداعية وشاهد روائعه الفنية أنّه قدّم صورة صادقة وأمينة للمجتمع العربى على مدى نصف قرن أو يزيد، ومن أىّ مجال وجهت نظرك نحوه أدركت أنه عبّر عن المرحلة الاجتماعية التى عاصرها، والأزمات التاريخية التى عايشها، والتساؤلات الفلسفية والروحية التى أحسها.

وقد حرصنا فى هذه الدراسة أن يكون منظور (نموذج الأنثى) هو المجال الذى نحاول من خلاله الكشف عن بعض جماليات أعماله

الروائية على المستويين الواقعي والرمزي، ومن هنا تناولنا نتاجه قبل الثلاثية، ومن خلال الثلاثية نفسها، حتَى نوضح إطار رؤيته الأدبية وقدرته على أن تصوّر حقائق الواقع وتستشرق آمال المستقبل.

وقد أدّى بنا ذلك إلى تحليل واحدة من رواياته الرمزية، لنتبين من خلالها طبيعة العلاقة بين الرمز والمرموز، ونوعية الرابطة بين الدال والمدلول.

في الحقيقة الغاية النبيلة.. القريبة البعيدة من هذه الدراسة هي: الدعوة لقراءة تراث ذلك الأديب العظيم، أو تجديد القراءة لمن اطّلع على هذه الأعمال من قبل، حتَى يتعرف إلى الرؤية الأدبية العميقة التي طرحها محفوظ للعالم والإنسان.

* * *

بقي أن نشير في نهاية هذه التقدمة المختصرة إلى بعض (الأمنيات الطيبة) التي نرجوها لهذا الأديب العالمي العظيم، الذي اهتزت لموته الدنيا بأسرها، وبكى عليه أهل الشرق والغرب أجمعين.

أولاً: أن يقوم المسئولون عن الثقافة بتقديم (طبعة شعبية) من أعماله الخالدة، وأن يكون سعرها في متناول الفقراء الذين كتب عنهم ولهم، خاصة وقد احتكرت طبعات أعماله وترجمات نصوصه دور ومؤسسات تطمح إلى الربح والتجارة، وتحقيق نوع من الاحتكار

الأدبـى، فكأنهم يريـدون (خصخصة) الثقافة بعـد أن خصخصوا كلّ ما عداها..!!

ثانيـاً: فك الحظر المضـروب على روايته الرائعـة والمثيرة للجدل «أولاد حارتنا»، إذ لاأظن أنّ أحداً من المثقفين فى مصر أو فى غيرها، لم يقرأها ولم يُدر حواراً نقدياً وأيديولوجيا حولها.

وقـد آثر الراحـل العظيم أن يحترم آراء بعض سـدنة التابو، ومن يدّعون (الوصاية) على الفكر والحرية.

فما الذى يمنع من نشرها اليوم بعد أن رحل الجسد وبقيت بصمات الروح؟ ومن شاء فليقرأ، ومن شاء فليبتعد..!

ثالثاً: أن يطلق اسـم الراحل العزيز على «ميدان سيفنكس»، والذى أقيـم فيه تمثاله المتواضـع فنياً... وأن يعاد تنسـيق قاعـدة التمثال، وهندسـة الميدان، حتى يصبح المكان على قدر قيمة الإنسـان، حيث إن روعة البناء تشـكل عظمة الفضاء. الجمال سياق متكامل.. وأثر من آثار بديع السماوات والأرض على خلقه. لاشىء يجعلنا نعشق الجمال سوى أن يكون الكون من حوْلنا جميلاً..!!

إن – محفوظ – شـأنه شـأن العباقرة فى كل زمان ومكان – ينبغى أن ينال تراثه بعض مايسـتحق من تكريم وإشادة، لأن الإنسان العظيم

ليس ملكاً لأمته فحسب، وإنَما هو ذخيرة ذهبية للبشرية جمعاء. وإذا كانت فرنسا تفكر فى أن تطلق اسمه على أحد شوارع العاصمة باريس، فهل يفكر المثقفون العـرب والقائمون على أمور الثقافة فى عمل تكريم لائق لذلك الراحل العظيم..؟!

اللهم بلَغت... اللهم فاشهد..!!

د. طه وادى
كاتب روائى
وأستاذ الأدب العربى الحديث
كلية الآداب – جامعة القاهرة

٢٠٠٦/٩/١٦